

مجاز الشرق والغرب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

الثغور الكبيرة في مظاهر حياتها ونشاطها ؛ بيد أن ما نلاحظه عادة في حياة الثغور من تباين في الناس والمجتمع يبدو في مرسيليا أقوى وأشد وضوحاً . فهناك يلتقي البيرقيون والفرزيون من مختلف الأجناس والأهم ، وتفص بهم شوارعها ومقاهيها وفنادقها ، ولكن هذا المجتمع التباين يجوز دائماً حياة طائفة غير مستقرة ؛ ذلك أن مرسيليا مجاز فقط بين الشرق والغرب ، تجتازها الجموع مسرعة ، سواء إلى الشرق أو إلى المغرب ، ولا تترك فيها أثراً ، ولا تحمل منها ذكريات ذات شأن

وليس في مرسيليا ما يجذب السائح التجول من المشاهد الاجتماعية ويترك في نفسه أثراً خاصاً سوى حبها الشهير المسمى « الكانيير La Canebière » ، فهو قلبها النابض ، يضطرم دائماً بحركة زاحزة مستمرة ، وتجتمع فيه أمم مرافقها التجارية ؛ وهو تفرها الباسم ، يفص من الجانبين بالقاهي الأنيقة ، ويفندو بالليل قطعة من الأنوار الساطعة ، ويؤمه المجتمع الأنيق المرح ، وهو أشبه الأحياء بشارع عماد الدين عندنا ، بيد أنه أكثر منه ظرفاً وبهاء

ومما يجدر ذكره أن هذا الحى الأنيق « الكانيير » كان منذ عامين مسرحاً لفاجعة دموية مروعة اهتزت لها أوروبا ، وكادت تودي بالسم الأوربي ؛ تلك هي مصرع الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ، ومسيو لوى بارتو وزير الخارجية الفرنسية الذى كان يرافقه في العربة الملوكية ؛ وقد وقع الحادث على مقربة من ملتقى « الكانيير » بالبناء القديم ؛ ورأت الحكومة الفرنسية أن تحل ذلك الفاجعة المرسيلية بأقامة نصب تذكاري إلى جانب المكان الذى وقعت فيه ، وقد سطرت في رأسه هذه العبارة : « هنا سقط اسكندر ملك يوجوسلافيا ، والرئيس لوى بارتو في سبيل قضية السلام والحرية ، في ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤ »

أما عن المشاهد الأثرية فليس في مرسيليا منها ما يستحق الذكر سوى أثرين : الأول في داخلها ، وهو قصر لونشان ، وهو قطعة بديعة من الفن تزين واجهته نافورة ضخمة رائعة الجمال ، وتحيط به حدائق عظيمة ، نصبت فيها تماثيل عديدة ، وأبنا منها تماثلاً لسترال الشاعر البروفنسى الشهير ، وآخر

للسباحة أدب خاص . وربما كان أدب السباحة أقدم أنواع الأدب بعد أدب الأساطير والفروسية . فنذ القرن الخامس قبل الميلاد نجد هيرودوت أبا التاريخ يجوب أنحاء آسيا الصغرى وفارس والشام ومصر ، ويقدم لنا دراسته ومشاهداته في أثر تمتع هو الأول من نوعه . وقد جرى أكبر الرحل والرواد في كل عصر وقطر على تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم . ولدينا في ترانثا العربي طائفة كبيرة من الآثار الهامة التى تعتبر وثائق نفيسة عن أحوال المصور التى كتبت فيها والبلاد والمجتمعات التى تناولتها

وقد كانت السباحة من قبل مفاسرة محفوفة بالشاق والمخاطر ، ولكنها أُنحِت في عصرنا هيئة ميسورة ، بل غدت متاعاً وزهية بما سهد لها من وسائل المواصلات السهلة الأمانة في البر والبحر والهواء ، وتنوعت سبلها ووسائلها ومرغباتها ، وأُنحِت في كثير من البلاد التى حبتها الطبيعة بمحاسنها صناعة قومية تنظم لاجتذاب المومرين والترفين

ومن الحقائق المروعة أن السباحة تذكى الخيال وتعلم القلم ؛ ذلك أن السباحة تقدم إلى الكاتب مادة غزيرة من الجديد في كل شيء : في الطبيعة والاقليم ، وفي الأشياء والناس ، وفي مختلف نواحي الحياة الاجتماعية ؛ وهى بما تحمل من متاع للنفس والعين والروح تمد الكاتب بذلك الغذاء الروحى الذى يستمد منه صوره ، وتبعث اليه في معظم الأحيان رغبة ملحة في التحديث والافضاء بما رأى وشاهد

وصلنا إلى مرسيليا بعد أن قضينا في البحر خمسة أيام في جو هادئ وسير ناعم مريح ، وأرسلنا في الصباح الباكر في مرفئها التاسع . ومرسيليا ثغر عظيم ، ولكنها لا تحتاز عن غيرها من

لشاعر الحب والجمال الفونس دي لامرتين

وأما الأثر الثاني فهو خارج البناء ، في جزيرة صخرية صغيرة ، وهو حصن « إيف » (شاتوديف) الشهير وليس لحصن إيف في ذاته أية أهمية فنية أو أثرية ، ولكنه يلفت النظر بقواعده وجدرانته المنيعه التي قدت من الصخر الهائل ، والتي يتكسر عليها الموج المزيد

وقد ارتبطت بهذا الحصن الصغير الذي أنشأه فرانسوا الأول في أوائل القرن السادس عشر ليكون سجنًا سياسيًا ، ذكريات مروعة ، ما زالت أوكاره المظلمة الضيقة تحمل آثارها ؛ ذلك أن هذه الأوكار السحيقة التي لا يكاد يدخلها شيء من الهواء أو الضوء كانت مئوى لطائفة من أكابر الزعماء والساسة ، منهم « ذو القناع الحديدي » الشهير الذي ما زالت شخصيته لغزاً على التاريخ ، والذي يعتقد فولتير أنه أخ غير شرعي للويس الرابع عشر ، قضى بسجنه وإخفاء وجهه بقناع دائم حتى لا يعرفه إنسان قط . ومنهم « ميرابو » خطيب الثورة الفرنسية ، و « فيليب دورليان » ابن عم لويس السادس عشر ، و « لويس فيليب » الذي تولى الملك فيما بعد ، وغيرهم من الزعماء والأكابر الذين سطرت أسمائهم جميعاً فوق الغرف التي سجنوا فيها ومن ذكريات « إيف » المروعة تلك المخادع الشاسعة المنخفضة التي تسمى « بمخادع النسيان » Oubliettes والتي كان يزج إليها بعض المعضوب عليهم ، فلا يذكرهم بمد ذلك أحد من أولى الشأن ، وربما تركوا فيها حتى يهلكوا في غمر الظلام والنسيان

يبد أن لحصن « إيف » ذكرى شهيرة أخرى ، أوحى إلى إسكندر دوما أعظم قصصه وأبدعها ونمى قصة « الكونت دي مونتي كريستو »

من من عشاق القصص الرائع لا يعرف « الكونت دي مونتي كريستو » تلك الشخصية العجيبة التي خلقها إسكندر دوما من شخصية آدمون دانتيس سجين شاتوديف ؟ ومن ذا الذي لا تطربه وتشجيه محنة آدمون في سجنه السحيق ، وقصة اتصاله بالأب فاريا صاحب الكنز العجيب ، ثم فراره من أسره الهائل بعد مخاطر مروعة ، وحصوله على كنوز جزيرة « مونتي

كريستو » ، وظهوره بمد ذلك على مسرح الحوادث في ثوب تلك الشخصية الخرافية التي يفيض من حولها الذهب والجوهر ؟

في حصن إيف وكر صغير مظلم قد في الصخر ، وفيه ثلثة صغيرة تصل بينه وبين مخدع آخر في مثل روعته وظلامه ؛ فنى وأخر عهد نابليون زج آدمون دانتيس في المخدع الأول بتهمة مؤامرة ملفقة ؛ وكان جاره في المخدع الثاني راهب شيخ يدعى الأب فاريا سجن قبله بأعوام طويلة لأسباب مجهولة ؛ ولبث آدمون أعواماً يرسف في وكرة ، وهو يدبر وسائل الفرار حتى وفق إلى حفر ثلثة صغيرة في جدار كان يظن أنه يفضى إلى فناء السجن أو إلى البحر ، ولكنه ألفاه يفضى إلى مخدع مجاور ، فتعرف بجاره وشريكه في الأسر ، الأب فاريا ، ووثقت بينهما المحنة وأواصر الصداقة ؛ وكان الأب فاريا قد وقت قبل محنته من وثائق كانت في حوزة بعض الأبحار على سر كنز عظيم من المال والجوهر خباء الكردينال سبادا في جزيرة « مونتي كريستو » على مقربة من الشواطئ الإيطالية ، فأطلع آدمون على سره حتى إذا فر دونه استطاع الحصول عليه

ثم توفي الأب فاريا فجأة ؛ وكانت العادة أن السجين المتوفى يكفن ويلقى في البحر ، فدبر آدمون وسيلة عجيبة للفرار خلاصتها أنه بعد أن كفن الأب فاريا ، وترك في مخدعه حتى موعد لقائه ، نفذ آدمون إلى ذلك المخدع من الثلثة الشهيرة ، ووضع نفسه في الكفن مكان الأب المتوفى ، ووضع الجثة في مخدعه ؛ وانتظر حتى جاء عمال السجن وحملوه ، وهو مستتر بالكفن وألقوه إلى البحر ظناً أنه هو الأب المتوفى ؛ فاستطاع أن يخرج من كفنه ، وأن يسبح حتى الشاطئ ؛ ونجا بتلك الوسيلة العجيبة ؛ وسافر إلى الجزيرة ، وبحث عن الكنز المنشود حتى عثر به ، وتسمى بالكونت دي مونتي كريستو ، وعاش في بذخ عجيب ، وهو يعمل للانتقام من أعدائه الذين أوقعوا به حتى أنفاهم أو نكبتهم جميعاً

تلك هي الحوادث والسير العجيبة التي يثيرها منظر ذينك المخدعين المروعين المتجاورين في حصن إيف : مخدع آدمون دانتيس وزميله الأب فاريا

بمناسبة المهرجانه الاولقى لربى الطيب فى دمشق

٢ - دين المتنبى

[تمة مانصر فى العدد الماضى]

للأستاذ سعيد الأفغانى

أنتقل الآن الى الكلام عن اعتقاد أبى الطيب ، وهو الموضوع الذى زلت فيه أقدام كثيرين ، إما ليل إلى الرجل أو عليه ، وإما لا كفتاهم من البحث بأدى نظرة ، وتلقاهم مظاهر من القول دون نفاذ الى حقيقته ولا تطلع الى ماحف به من قرائن . والحيطة فى هذا ضرورة لمن يريد استنباط أمور من الشعر العربى وخاصة فى عصر كمصر أبى الطيب فشا فيه الدح والغلو والتلاعب بالألفاظ ، وأصبح كل ماذج على مذهب ممدوحه فى الأغلب ، فان كان شيعياً أشاد الشاعر بسرارة الشيعة ورفع من مقالهم ، وان كان يقول بالتناسخ مال الشاعر إليه ، وان كان معتزلاً أوسنياً فالشاعر معتزلاً أو سنى . . وهكذا دواليك

فشت هذه الظاهرة من النفاق فى الناس وكانت أشد ما تكون فى الشعراء ، حتى لقد شهد العربى عليهم وعلى عصرهم بذلك ؛ وحسب التاريخ شهادة شيخ المرة ، فقد أيدىها بالدليل ، وأرسل فيها قولاً حكيماً يعرف رشده وصوابه كل من أمعن الفكرة ، ولم يكتف بالنظرة . قال بعد أن ذكر تنبؤ أبى الطيب والآيات تدل على تأله : « وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويمحتمل أن يظهر الرجل بالقول تدنياً وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض ؛ ولعله قد ذهب جماعة هم فى الظاهر متعبدون وفيما يطن ملحدون . وما يلحقنى الشك فى أن دعبل بن على لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع وإنما غرضه التكسب ؛ ولا أرتاب فى أن دعبل كان على رأى الحكى وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة . »

وقال فى موضع آخر : « وفى الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقد ، يتوصل به إلى الدنيا الفانية ، وكان لهم (يعنى القائلين بالناسخ) فى المغرب رجل يعرف بابن هانىء وكان من شعرائهم

ولقد ذكرنا منظر حصن إيف بحصن أقدم وأروع بمائله فى النشأة والغاية هو حصن سانت أنجلو فى رومة ، وهو مقفل هائل يرجع إلى المصور الوسطى ، وبه مخادع مظلمة مروعة كانت مقفلاً لطائفة من الأكابر ، مثل بنفو نوتوتشلىنى الفنان الشهير ، والعلامة جوردانو برونو ؛ وكان مدى عصور سجننا رسمياً لديوان التحقيق (التفتيش) الرومانى ، وكان مسرحاً لكثير من المآسى الدموية وحوادث الفرار الشائقة

هذا بعض ما أوحته الناظر والمشهد المرسلية إلى الخاطر . وما يجدر ذكره بهذه المناسبة قصة « البقشيش » (البوربوار) التى قرأنا عنها فى الصحف قبل السفر ، وعلنا أنها كانت موضع اهتمام خاص من الوزارة الفرنسية الجديدة ؛ فقد استصدرت وزارة مسيو ليون بلوم من البرلمان فى أوائل يونيه تشريعاً يقضى بالناء « البقشيش » فى جميع فرنسا ، وذلك لما رآه من تغلل هذا الداء فى جميع الماملات تغللاً يجعله أشبه بضريبة غير رسمية ؛ وقد اعتقدنا حين وصلنا الى مرسيليا أننا نخلصنا من هذا الداء النقص بفضل المسيو ليون بلوم ، فإذا نحن واهمون ، وإذا البقشيش لا يزال عماد المعاملة فى كل خطوة ، وكل شىء . وكان أول ما لفت نظرنا فى الفندق إعلان جاء فيه : إنه نظراً لالغاء البقشيش فقد رأت الادارة أن تضيف إلى جملة الحساب عشرة فى المائة نظير الخدمة ؛ فتساءلنا عندئذ ما الذى ألغاه القانون الجديد ، وما الذى فعلته وزارة المسيو ليون بلوم ؟

وما يلاحظ الآن فى فرنسا بنوع خاص أن الجبهة الشعبية التى تؤيد الوزارة الجديدة تلقى تأييداً شديداً ، وأن النزعة الديموقراطية التى كانت قد قهرت فى العهد الأخير قد عادت إلى حداثتها ؛ وفى ذلك ما يدل على أن الشعب الفرنسى يشمر اليوم شعوراً قوياً بما يهدد الديموقراطية من الأخطار ، ويزعم أن يتمسك بنظمه الحرة المريعة ، على رغم ما يتورها أحياناً من أوجه الفساد والضعف ، وأن يدافع عنها ضد تلك النظم الطاغية المهيمنة التى تسود اليوم بعض الدول العظمى ، والتى تحاول أن تسود أوروبا القديمة كلها

بورقاند (سفيح البرية) فى أواخر يولي محمد عبد الله عنده